الفنون التقليدية ورهانات المعاصرة

النسيج الليبي نموذجا

د. عمر عياد
جامعة قابس، الجمهورية التّونسيّة
amorayed75@gmail.com

الملخص

يقدم هذا النقال لمحة عن أهمية الفنون التقليدية في الحرف من حيث خصوصياتها الصناعية اليدوية والخصائص الجمالية التشكيلية التي ارتقت بالحرفة من صناعات تقليدية الى فنون تقليدية ودورها الاجتماعي والاقتصادي، اين تعددت الحرف التقليدية لنجد من بينها النسيج الليبي الحامل في ملامحه مخزونا فنيا متنوعا حسا وجمالا وروحا ترشح به الذاكرة والحرفة. ويعرض هذا المقال رهانات المعاصرة في الحرفة عموما وفي النسيج الليبي خاصة دون الاخلال بخصوصياته التاريخية والثقافية.

الكلمات المفاتيح: الفنون التقليدية. المعاصرة. النسيج الليبي

المقدمة

تُعد الفنون التقليدية بصفة عامة، وسيلة فعالة لتحقيق التنمية في كل بلد وعبر مختلف المستويات وذلك من خلال نشر الوعي وزيادة نسبة الاهتمام بها والرفع من مستوى القدرات والكفاءات المباشرة لها، ولذلك ظلت الفنون الحرفية دوما مقياسا لمدى رقي وأصالة الشعوب والأمم، أين يعيش العالم في إطار نظام كوني جديد يؤسس بصفة تدريجية لشروط ثقافة فنية جديدة تكرس لقيم ومفاهيم العولمة والشراكة والانفتاح والمنافسة. وبهدف تحقيق انخراط إيجابي في رهانات التحولات التي عرفها العالم في هذا المجال، وجب دراسة مورثنا الثقافي المادي دراسة علمية تفتح أمامنا آفاق التطويع والتوظيف والتثمين، فقد ظلت الفنون التقليدية كيانا أساسيا ومهما في المجتمعات بصفة عامة واضطلعت بأدوار مهمة ساهمت من خلالها في تلبية الحاجات الملحة للتنمية الاقتصادية والثقافية.

إنّ التراث ثري بالأشياء والعناصر على غرار الحرف والصناعات والعمارة والعادات والتقاليد لاعمت حياة الشعوب في الماضي ولازالت تلائم حياة المعاصرة في العديد من جوانبها، فإذا عدنا

إلى الفنون التقليدية في التراث الليبي لنبحث فيها عن شيء أصيل فإنّما نحن بصدد إضافة إلى الحضارة الإنسانية رافداً من روافدها المحورية، ولبِنة من لبِنات تلك الثقافة التي مثّلت ولازالت عراقة الهويّة، ولذلك توجّب علينا البحث في روح هذا التراث الثري بأنواعه وأشكاله حتى نقدمه لأنفسنا أولا ثم للمهتمين بهذا المجال، فهو إرث ثري وشاهد حي على أمم مرت وأرست لهوية أصبحنا جزءا منها، حتى وإن حضر التجديد والتغيير في عصرنا فهو أمر لابد منه ولكنه لا يطمس تلك الحضارة القديمة التي تغوص بجذورها في أعماق التاريخ، تبرز بين ثناياها مهارات أشخاص عمروا فابتكروا، فمارسوا حرفا أثقلوها بآمال وطموحات ملبية من وراء ذلك حاجيات تضمن استمرارية الحياة عندهم.

1-الثراء الحرفي بالمناطق الليبية

تتميز الأوساط الريفية بليبيا خاصة منها القرى الجبلية الامازيغية الأصل بأشكال تعبيرية ثريّة ومتنوعة تجسدت على محامل نسيجية في تصميم الزخارف المتكونة من الألوان والرموز والعلامات يعود ابتكارها إلى زمن بعيد، أين حافظت على ممارسة إنتاجها القرويات بالتعليم الأسري من الأم إلى الابنة، وتناقلتها الأجيال عبر الزمن محافظة على ملامحها التقليدية الموروثة رغم ما يشهده محيطها من تطورٍ ملحوظٍ، وظلّوا حتى يومنا هذا متمسكين بشخصيتهم المحلّية التقليدية وتراث بيئتهم المعيشة حتى وإن طرأت عليها بعض التغييرات فهي بدافع البحث على الإضافة والإبداع ومواكبة الذوق المعاصرة.

والانقطاع عن هذا الإرث لا يُعيننا على تكوين ثقافة جديدة يُعوّل عليها في إثراء الحياة، بل بالعكس يطمس هوية نحن في أمس الحاجة إليها حتى نجد لأنفسنا موطأ قدم بين أمم وشعوب بنت ماهيتها من ماضيها. ويبقى من بين أهم الآثار والإرث الذي تزخر به ربوع ليبيا هو النسيج التقليدي، وما اهتمامي به إلا للأسباب التي ذكرتها سالفا . ثم إن هذا الموروث المادي ورثه الآباء عن الأجداد وذلك منذ أقدم العصور وهنا يحضر واجبنا تجاه هذا المنتج التقليدي وتجاه الأجيال القادمة للحفاظ عليه وضمان سيرورته.

إن المرأة الليبية ولاسيما الريفيّة أبدعت ولعبت دورا كبير منذ القدم في الحفاظ على هذا الإرث واستمرار تطوره عبر الزمن وهو ما ساهم في ثراء وغزارة هذا المنتج الحرفي بثراء جماله، مستلهما من تاريخنا العريق الذي يمتدّ على ألاف السنين الذي تراكمت وتفاعلت فيه المكاسب الحضارية

إضافة إلى ما تعاقب عليه من ثقافات وحضارات وفنون مختلفة ومتنوّعة، فالناظر إلى النسيج الليبي وأخص بالذكر هنا النسيج الامازيغي ، وهو منتج بهوية خاصة ووجودا بارز يلفت نظر أي شخص حرفي كان أو فنانا لما فيه من خصائص كثيرة بداية من الجانب التقني الراقي والحرفية الكبيرة الدالة على أنامل أناس أحسنوا الصنع، وصولا إلى التكوينات والخصائص التشكيلية الفنية المؤثثة لفضاء الصناعات التقليدية الامازيغية، فالأمازيغ أمة من الأمم التي سكنت ليبيا مثلها مثل العديد من الأمم الأخرى ولتزال، طبعت الحرفة نمط حياتهم وأرست مخزونا تراثيا وحضاريا فيه الكثير من التنوّع والثراء والجماليات، تناقلته الأجيال المتعاقبة.

لتصبح البلاد الليبية بفضل هذا المخزون النسجي الحضاري الثقافي وغيره من المنتجات الأخرى من أبرز البلدان المنتجة للمنسوجات بأنواعها أين أتقنت النساجات الليبيات بما فيهن الأمازيغيات منهن في إنتاج وتطوير والحفاظ على هذا الفن الهوية بمرّ الأزمان والأجيال دون التخلي عن طابعها الخاص والمميّز الذي ساهم بدوره في ظهور أنماط وأشكال متنوّعة ومتجدّدة، إما في الشكل أو الاستعمال، فالشكل تنوع عندهم من خلال الحجم والنوع والوزن والزخرف والاستعمال تنوع من خلال تنوع وظائف كل قطعة.

فالفنون التقليدية إنما هو نتاجا لمجمل هذه التراكمات الحضارية، الثقافية، التاريخية والفنية ليجمع بين أنواع شتّى لا سيما منها المفروشات والملابس التقليدية ووسائل الزينة وغيرها من الإنتاجات العديدة التي صاغتها وحاكتها الأجيال من خلال تجربتها الطويلة لتتحوّل في الأخير إلى موروث يبني هوية وتتناقله الأجيال استعمالا وصناعة لما يملكه من جماليّة وانتساب إلى تاريخ طويل وعريق. وهي" تجارب السلف المنعكسة في الآثار التي تركوها ومازال لها تأثير حتى عصرنا الحاضر، ففي مجال الفن هو بمنزلة الملاحظات الزاخرة التي أدركها الفنانون عبر التاريخ وتركوا بصماتهم معبرة عنها وتعكسها في الفنون الزخرفية التي حققتها على مر العصور"[1].

ولأنّ الأنشطة الحرفيّة مرتبطة منذ القدم بالحاجيات اليومية للمجموعات السكانية فإنّ الليبيين لا تكاد تخلو بيوتهم وقراهم من منتج أو حرفة، كالخزف والنسيج والحلي، لتختلف التقنية والمجال وتتشابه في عدة علامات من أهمها الرمز والشكل والدلالات أين نجحت المرأة الامازيغية الليبية في تطويع ما توفّر لها من مواد أوليّة لصناعة مستلزمات عيشها، ذلك أنّ الحرف الشعبية بتوارث مكوّناتها ترتبط ارتباطا وثيقا بمعطيات الحياة نفسها واستخدامات الإنسان لمعطيات الطبيعة على

1- عفيف بهنسي، جماليات الإبداع العربي، مجلة فصول، المجلد السادس، العدد الرابع، 1986، ص21.

مر العصور في حياته اليومية. فكلّ جيل يضيف أشياء أو يغيّر أو يعدّل بعض الأشياء، ليستوي في النهاية العمل اليدوي في الحياة اليومية الجارية إبداعا مستمرا له قيمته الإنسانية كإبداع حضاري يعبّر عن موقف الإنسان من تجربة الوجود ونظرته للحيا، ف "من خاصيّات المصنوعات التقليديّة أنها تنجز من خامة حيّة ... باشرها الإنسان دون أيّة وساطة آليّة. فالتّحف التقليديّة إن صحّ التعبير... في آن واحد فريدة ومتعدّدة، ذلك أنّ الفن التقليدي يمتاز بالمحافظة وبالخلق الدّائم، إذ يكرّر فيه النموذج الوّاحد دون الرّجوع إلى معيار مضبوط يقاس عليه"1.

ففي تنوع الثقافات تتجدد الرؤية الجمالية للموروث الحرفي وفي صدق القراءة البصرية للواقع تتعمق البساطة الظاهرة في هذا المنتج ليعكس على سطحه كل ما تفرزه الشعوب من تصورات وأحلام وفلكلور وتراث وهوية أين يحضر المزيج الواقعي والنفسي والاجتماعي متداخل الأبعاد، فكل ما يرسم فيه إنما هو فضاء لاختزال الأحاسيس والمعتقدات أين تصقل وتوزع مجددا مفعمة بدفق متنوع من الرؤى التي تنعكس على فهم كل متلقي، أين يحضر حس الحرفية ورؤيتها في البحث الجمالي عن كل ما يعبر عن هوية شعبها وكل مميزاته التشكيلية والرمزية في جميع أبعادها لتؤسس لجمال متفرد الحضور.

2- اهمية النسيج اليدوي بليبيا

ان المنتج النسجي الليبي يحمل في ملامحه مخزونا فنيا متنوعا حسا وجمالا وروحا ترشح به الذاكرة والحرفة، جسّدتها رحلة الذاكرة الملونة التفاصيل والمختلفة المسارات والثقافات التي مرت بهذه الربوع ، ليحظر الاختلاف والتنوع والصدام واللقاء الخالق للتفرد التعبيري والاختلاف التشكيلي ولتوثق لصورة زاخرة بالخطوط والألوان والأفكار والرؤى، مما ساعدنا على تحديد ملامح المنسوج الليبي بألوانه العميقة المضيئة المبرزة لجانب وجدانيا وروحانيا يتداخل ويتفاعل مع الهوية الامازيغية، حاملا بين "رقماته" هاجس الرمز واللون، بسيط الملامح سهل الحضور، شيق التفاصيل مثيرا لدهشة حالمة يعبر عن الشعوب قد مرت وولت، لتتخذ النساجة الليبية من هذه البساطة العميقة فكرة وأسلوبا وبصمة، فكانت بارعة في تشكيل تلك الرموز بتراثها وذاكرتها واستلهام الأفكار والرؤى مع الواقع بكل جوانبه، ولتوظيف التفاصيل اليومية في تشكيل المنسوجة دون تجاهل ما تحمله في ذاتها من ذكريات.

1 - النّاصر البقلوطي، مقولات في التراث الشعبي، منشورات تبر الزمان، تونس، 2005، ص 30.31.

منذ سنوات ماضية وحتى اليوم لا يزال سؤال الهوية قائما في الفنون والحرف، وهو سؤال يتعلق ببنية اللغة التشكيلية من لون وشكل في المنتج الحرفي التقليدي، لأنه كان بشكل أو بآخر يمثّل نوعا من الأنماط التعبيرية المثقلة بالمفردات البصرية الموروثة والمتداولة شعبيا _رموز وإشارات وعلامات دينية وسحرية وبيئية_ و"يمكن تعريف الهوية بأنها الشفرة التي يمكن للفرد عن طريقها أن يعرف نفسه في علاقته بالجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها، والتي عن طريقها يتعرف عليه الآخرون باعتباره منتميا إلى تلك الجماعة.

وهي شفرة، تتجمع عناصرها العرقية على مدار تاريخ الجماعة (التاريخ) من خلال وتراثها الإبداعي (الثقافي) وطابع حياتها (الواقع الاجتماعي). بالإضافة إلى الشفرة تتجلى الهوية كذلك من خلال تعبيرات خارجية شائعة مثل: الرموز، الألحان، العادات، التي تنحصر قيمتها في أنها عناصر معلنة تجاه الجماعات الأخرى، وهي أيضا التي تميز أصحاب هوية ما مشتركة عن سائر الهويات الأخرى. ولكن الملامح الحقيقية للهوية، هي تلك التي تنتقل بالوراثة داخل الجماعة، وتظل محتفظة بوجودها وحيويتها مثل: الأساطير، والقيم والتراث الثقافي."[1]

3- جماليات التكوين في المنسوج الليبي

إن تأصيل الفعل الجمالي كان بالنسبة إلى الكثيرين نوعا من الواجب الملزم ثقافيا وليس فنيا، في حين كان بالنسبة إلى البعض واجبا يمليه الإيمان بضرورة التأصيل لجماليات الحرف القديمة أي كان ذلك الإيمان في حقيقته انعكاسا لطريقة البحث في علاقة الفن بالفطرة والمعتقدات حتى وإن كانت بعض الأعمال الحرفية متدنية في مستويات أدائها التعبيري ، وهو ما ألقى بظلال الشك على قدرتها على فهم القيمة الجمالية للرمز والتركيز على الجانب العقائدي والنفعي الغالب على الإيحاء الجمالي الحاضر في العديد من الأعمال الأخرى التي استطاع منجزها توظيف عناصر التكوين والتركيب المتمثل بالخط والزخرفة و اللون، فـ " الرمز يطبع الحضرات، بطابع التقائي، يتحدد فيه، أولا، كون الرمز شيء مادي، يتحدد بالرؤية، لأنه أرقام، تبث، رسوم عديدة جاءت من الطبيعة Nature، وفي ثم تحدد الرمز، وفقا لمفهوم الطبيعة عند الانسان، بإشارة سجلت عبر الطقس Rite ، أولا و تأكدت باللغة، بواسطة الترميز، التدوين الأول."[2]

1- رشاد عبد الله الشامي .إشكالية الهوية في اسرائيل . عالم المعرفة. الكويت. 1997.ص7

2- فيصل مفلح. هيكلة الرمز في الوجود. دار الينابيع. دمشق. 2008. ص.49

إن اشتباك العفوية والمهارة والعقائد والأشكال خلق منجز فني في المنتج الحرفي عند الشعوب، إضافة إلى الرغبة الملحّة في صياغة منتج حرفي ذي هوية قد وضع التجربة الفنية الحالية كلها في مواجهة موروث غزير أخذت منه وحادت عنه في بعض الأحيان ليصيرا فيما بعد نوعين من الفنون القابلة للتأويل والتأويل المضاد، الأمر الذي يجعل تلمّس الطريق إلى لغة تشكيلية فيه معقدا لا تفك شفرته إلا بالعودة إلى أصوله الاجتماعية، بالرغم من وجود لغة تشكيلية ذات ملامح واضحة تغلب عليها عناصر التكوين "البلاستيكي"، دُفعت بمواهب استثنائية إلى جماليات ونظريات فنية.

كما أن عناصر الهوية يمكن اختزالها في جدول للعلامات الخطية واللونية ليفكك الباحثون التشكيليون والاجتماعيون ما تيسر بين أيديهم من مفردات إرث حرفي، وصاروا يبحثون في تفاصيل تلك الأعمال لاستخراج نسبٍ جمالٍ جماعي ودلالات اجتماعية عن الهوية، بالمعنى الذي يعيد ترميم وصيانة قاعدة تؤسس لوعي العالم لموروث حرفي وفني لشعوب متأصلة منذ القدم، وهي القاعدة التي كانت راسخة بقوة في أوقات سابقة، غير أنها تهدمت بعد أن تعرّضت للإهمال والإنكار بسبب نظرة دونية، كان ذلك الانحراف قد أحدث شرخا خفيا بين الحرف والفنون.

لم يكن المنتج المادي واللامادي الليبي، مبعد عن كل هذه التأويلات والبحوث المعاصرة والغير معاصرة، التي هي تعبير عن تأصيل لفن بهوية خاصة، هناك حيث برز الرمز بمفهومه الشامل والعميق غير أن الأمر بالنسبة إلى حرفيهم جمع بين لغة الخطاب والتواصل بالرمز ولغة الجماليات والتركيب.

إن المنتج النسجي الليبي لا يتوقف عند حدود التماس الاستعراضي بين ما هو جمالي وبين ما هو نفعي، ذلك لأن بحثه الجمالي احتوى على ابتكار لغة تشكيلية ترميزية مستقلة، تكون من خلالها العين مرجعا لتجسيد الوقائع البصرية من مشاهد طبيعية وحيوانية، ما يُرى منها وما لا يُرى ليفتح للخيال مساحة للتصور. ذلك لأن النساجة الليبية ترسم ما ترى وتتصور ما تعتقد وتتمنى، غير أنها في هذه المنطقة بالذات تتصرّف بحذر وشعور صادق بالمسؤولية. لتدرك في وقت مبكر من حياتها أن للرسم والشكل لغة مختلفة عن التبسيط والسذاجة وفي كل أحوالها لن تكون محايدة، وهي لغة تصلح للوصف ولاستدعاء الذكريات والحنين. وكان ذلك خيارا يفلت بالنساجة الليبية من هيمنة الحكاية وتنقية الواقعة من تفاصيلها – أي تفاصيل الحكاية –.

لن يكون مفاجئا أن تُعتبر المرأة الليبية حرفية برتبة فنانة فلقد هيمنت بلغتها التشكيلية الجمالية على طريقة بناء فضاء منسوجاتها ورسم أفكارها برسم خطوطها وألوانها، ففي موازاة تجربة الرمز والهوية في المنسوجة الامازيغية برزت ثنائية اللون والضوء، وهي التي تمثل نقلة نوعية كبيرة في مفهوم المنجز الحرفي ليرتقي إلى مصاف المنجز الفني من خلال معالجة قضايا تشكيلية وإن كانت بدون وعي في أوقات عدة، وهنا يبرز دور الباحث والقارئ التشكيلي في استنباط هذه المفاهيم.

لتستلهم ألوانها من معاني يمتزج فيها التراثي بالشعبي، من غير أن تتخلى اللغة اللونية عن أسلوبيتها في الأداء، لتحاول النساجة الليبية النجاة بفنها دون القطع مع تراث عرقها المحدد لهويتها حين لجأت إلى الاستلهام من ارث أجدادها الذي تنطوي عليه الحكاية التاريخية.

لم تكن المرأة الليبية في استلهامها لمعتقد تاريخي محلي تراثي على المستوى الشكل، تؤسس لشيء جديد بل هي تؤصل لهوية من واجبها التأصيل لها، اين تنبعث الأشكال من رغبتها في الإنصات إلى الجوهر الحكاية المنقولة شفويا لذلك لم تكن لغتها التشكيلية وصفية، بقدر ما كانت بحثا في عجينة المادة الرمزية التي لا تزال تشكل مساحة عظيمة من وجود أصلها.

من خلال هذا الأسلوب والتجربة نجحت في الحفاظ والإضافة للمنتج النسجي الليبي الذي كان عبارة عن وديعة هادئة تركها أسلافها، وكما نرى فإن تجارب مهمة في النسيج الامازيغي قد ولدت من رحم ذلك الإرث.

4- المنسوج الليبي ورهانات المعاصرة

كان ظهور الحرفيات المعاصرات مناسبة مهمة لفصل ما هو تراثي عما هو شعبي ولو تأملنا المنجزات النسيجية في ليبيا لتحققنا من ذلك الفصل، ففي كل مراحلها كانت النساجة ترى في الترميز للحياة الشعبية نوعا من الخيار الجمالي الذي يجعل للرمز وظيفة بصرية وجمالية، من غير أن ترتقي بلغتها إلى مستوى الكشف والتحليلي الذي تعنيه باعتباره مادته الخيالية.

لقد حرصت نساجة هذه الربوع على أن تكون رسوماتها مستوحاة من التراث النسجي للمنطقة وهو ما لم يثنيها على التفكر فيه بالإضافة أو التحوير البسيط، لتجرؤ على خلق خصوصية داخل الخصوصية. كان لدى المرأة ما تقوله من خلال القطعة النسجية الواحدة، فقد كانت متعتها في الرسم بتقنية النسج تكمن في دعاباتها التشكيلية، على الرغم من أنها تتودد إلى إخراج تراثي

مؤسس للمنسوجة الليبية، وهو ما تفعله الليبيات عادة حين يتعلق الأمر بمفهوم الأصالة، وهو مفهوم غالبا ما أدّى إلى الرفع من قيمة اللغة التشكيلية وقوة الانتماء. لقد سحرت التكوينات والرموز القديمة حفيدة الامازيغ، لتستسلم في النهاية للأشكال والرموز والألوان وهو ما جعل لغتها التشكيلية ترتقي لتدخل في إطار ما هو مختلف عما يوجد في السوق السياحية.

لأشكال والرموز والمساحات اللونية في المنسوج الليبي

لقد اكتشفتْ أن كل خط تلقيه على سطح المنسوجة إنما هو صورة عن رمز لمعتقد، لذلك حرصت على أن تحمل خطوطها رسائل إلى محيطها والى العالم، وبالنسبة إليها فإن لغة الرسم والرمز هي أقرب إلى لغة الحياة منها إلى لغة الجمال فبالرمز يتواصلون ويتنصحون ويتعارفون لأجل البقاء. لتلهمها الطبيعة جمالياتها من أشكال وأصباغ لونية وظفت في تأثيث فضاء المنسوجة، لتبحث في الأثر الذي يتركه الإنسان الليبي أيضا وتوظفه، فعلى حد قول " بيكاسو" أنّ " الشيء الأكثر استعمالا يومياً هو مركب وناقل لفكرتي"[1]، حيث كانت رموز النساجة تدور حول كل ما هو أثر يؤديه الإنسان في تيهه اليومي، فهي تكرر الأشكال لا لتستغيث بها من ضيق أفق تكويني بل من أجل أن تعيدها إلى مدارها الرمزي، الذي كانت ترعاه ولا يراه أحد سواها، و لتبني به مساحة

1- Picasso et la Céramoque، Musée national des beaux-arts du Québec، Gardiner Museum of ceramic Art، Musée Picasso Antibes، Éditions HAZAN، 2004، p.22.

تشكيلية جمالية تأسس بها لعلاقة مع الأخر أي كان ذلك أن "... الممارسة الفنّية بمختلف أشكالها يمكن أن تُحوّل الفضاء إلى مجال تواجد فعّال وممتع مع الآخر..."[1]

هناك العديد من النساجات الليبيات حاولن في مختلف المراحل أن يكنَّ في لحظة النسج مخلصين لتراثهم دون السماع لأصواتهنَّ الشخصية، هنا حيث غلب الجانب الحرفي على الفني لتصبح النساجة آلة تنجز ما عرفت بإتقان، أين يصلح النموذج السابق من النساجات عونا للعبور إلى منطقة أخرى، أكثر تحررا ووعيا بقيم جمالية في المنسوجة اللبية، لا يزال الجزء الأكبر منها مطمورا على المستوى النظري. ولكن إذا ما ألقينا نظرة شاسعة على هذا المنتج الحرفي سنرى أن السلوك التشكيلي القائم على استعارة الرموز التراثية والفلكلورية قد حقق أرقاما قياسية في مجال صياغة لغة بصرية، بحيث تصنع المنسوجة في مناخ تغلب عليه الطقوس، شكليا وتقنيا.

فالنساجات يرتبطن اليوم بمزاج شعبي خفي، يتقدم من خلاله الوهم المستقر على الحقيقة المغامرة أين صارت المنسوجة عبارة عن طقس بصري استعاري، ليستلهم قيمه الجمالية مما هو مكرس اجتماعيا بصيغة ثقافية، لتكون اللغة الفنية متشابهة مع اختلاف بين الأجداد والأحفاد في تفاصيل المنسوجة.

إن المفردات الجمالية المتاحة في الإرث النسجي الليبي قلص المسافة بين الحرفي والفنان هناك عناصر تشكيلية تضع الحرفية الليبية في مكان مختلف، غير أنها لا تخفي عن العين الخبيرة حقيقة أن الحرفية نفسها صارت رهينة عالم تتجاذبه قوتان: حيلة السوق ومهارات تقنية. ولكن وفي الشق الأخر تلتقط النساجة مفردات من محيطها الثقافي، لتلعب عليها، تكررها، تمحو جزءا منها، تكبّرها، تغرّبها عن وظيفتها الأصلية وتحركها في سياق بلاغي مختلف، ولكنها لا تفعل ذلك إلا في حدود خبرتها التقنية "فالتقنية هي أداء لفكر الإنسان في النمو والتطور"[2].

لقد أحكم السوق على قيد لغة الصنعة وهي لغة مباركة من جهة ما تدرّه من أموال، ستكون النساجة بسببها أكثر المنتفعين لتصبح مخاطر طمس الخصوصية والهوية خوف كل مثقف. ولكن

1- محمد محسن الزارعي. فصل الفضاء التواصلي فضاء هيمنة أم فضاء إبداع وترفيه. الإبداع الفني والفضاءات التواصلية. منشورات المعهد العالي للفنون والحرف بقابس. 2003. ص 28.

2- أحمد فؤاد باشا، فلسفة العلم والتقنية، محاضرة، بتاريخ الأربعاء، 13-4-2004، ص 3-4.

السؤال هنا هل لا يزال الجمال الذي تقترحه آثار أجداد النساجة الامازيغية الليبية أهم بكثير من التجارب التغيير التي ادعت النساجة استلهام مفرداتها التشكيلية منها؟

لقد اكتسبت المنسوجات الليبيات صفة التشابه الذي استطاعت أثناءه ثقافة الامازيغ في عدة بلدان أن تتصل بعضها بالبعض الآخر أين كانت لغة الرمز واحدة من أهم الألغاز التي ما كان بالإمكان الحصول على مفاتيحها في ذلك العقد إلا من أهل الذكر.

لترسم بأسلوب معين وتلون بأسلوب معين أيضا وتختلف حاليا نوعا ما، لا بسبب تغير آلة النسيج، فالمنسج هو المنسج ولكن بتغير الأصباغ وطريقة انجازها وتطور مستوي الحرفيات وثقافاتهم خاصة في علاقتهم بالعرب.

توزّعت لغة الرسم في المنسوجة الليبية بين منطقتين: شكلية ولا شكلية. في المنطقة الأولى يختلط التجريدي بالتشخيصي، ليشكّل الناتج جدارا عازلا من خلفه تُتَخذ الحياة كصورة، كفكرة محايدة عما هو معاش. هي الفكرة التي صار الكثيرون يودّون لو اقتنصوا الفرصة لامتلاكها ومن ثم المضي من خلالها إلى مغزى الصورة. في المنطقة الثانية كانت الإرادات تتصارع إرضاء لقوة الغياب، صاغت فيه النساجة عالما غير قابل للعيش، بيد أنه عالم أخّاذ ومهيمن، لكن ومن وجهة نظر ساذجة فإنه ليس هناك ما يستحق أن يكون مجالا لإعادة النظر في محتوى المنسوجة الليبية الامازيغية، أين فندت هذه النظرة بعين الفنان الثاقبة فالرمز وحده يمكنه أن يخلق عالما فذا، هو في حقيقته حديقة الحواس، وفي الوقت نفسه هو الشاهد على فشل الحدس في التقاط بذرة تجليه النهائية.

إن الرموز باختلاف أشكالها، وكونها محاولة لاستخراج مواقع حساسة لجمال لم يُستنفد بعد يظل رهين لغة هي أشبه بالوديعة التي تتنقل بها رغبات خفية بين الموجود والمنشود، فلطالما استلهمت النساجة تكويناتها من محيطها باعتباره ملهم تعبيري، لتوظفه بنزعة أسلوبية هي التعبير الأمثل عن سلوك بصري ينطوي على مرجعيات تراثية خاصة وأيضا على دربة وخبرة تقنيّة.

فبالنسبة للنساجة فقد كانت المنسوجة مجال تدوين المشاعر والانفعالات والتجاذبات الذاتية، فالأمر كله يتعلق بها، من حيث كونها الجهة التي ترى وتتخيل وتبعث الأشكال من معطى بصري وتقليدي ومع ذلك تظل المنسوجة الليبية مكتفية بذاتها ولا تحتاج إلى تدخل تشكيلي كبير، يمكن أن يجعلها منتج غريب عن بيئته.

لقد لعبت الخرافة بكل امتداداتها التصويرية المتخيلة في الفعل النسجي الليبي دورا كبيرا، إذ تحل محل الواقع، بل وتنفيه أحيانا لذلك فإن الرمز يلعب دورا تكميليا بغض النظر عن حجمه ونوعه – خطي أولوني – على سطح المنسوجة، لا بمعنى أنه يسد مضطرا نقصا بل بما يعني أنه يرافق الحالة السردية إلى خواتمها، باعتباره راويا ورائيا. فالرمز هو جزء من كلّ المنسوجة، ملامحه الأسطورية هي تعبير عن تحولات الوقائع التي يستند إليها، وهو "رقمة" motif تتخذ طابعا دينيا وسحريا وتزويقيا.

إن كل رمز تنسجه المرأة الليبية، يمكنه أن يكون شاهد عن عقيدة دالا عن هوية، ويمكنه أن يرتقي في الوقت نفسه إلى مصاف الأيقونة الجامعة بين الواقعي والأسطوري، بل هي أيضا تمشي بالاثنين في اتجاه مشترك، باحثة من خلاله عن الخلود الغامض باعتباره حلا لمشكلات العيش، فالجمع بين ما هو أرضي وسماوي في الوقت نفسه يتجلى واضحا في شكل المعين ومن ورائه المثلث، حيث تتجه قمتي المثلثين المكونان للمعين إلى الأسفل حيث الدلالة عن الأرض والجسد وإلى الأعلى حيث السماء والروح.

ولو قمنا بالمقارنة بين الأشكال والألوان المكونة للمنسوجة، لاكتشفنا أن التكوين نفسه قد جمع بين الصلابة والليونة صلابة الشكل بخطوطه الصلبة المستقيمة وليونة اللون بصفائه وضيائه، عاش الرمز في المنسوجة كائنا خفيا لا مرئيا أحيانا ليظهر على سطحها مجردا ويكسر بذلك الصعوبات والحواجز بين الشكل والتقنية لتصير التقنية تبحث عن أشكالها المجردة.

ولكن ألم يكن التيار التجريدي للرمز أكثر غنى على المستوى التشكيلي من تيار التشخيصي كونه عنصر اتصال بين الواقع والخيال؟

أعتقد أن النساجات البربريات عامة والليبيات خاصة قد لجأن إلى خيار اللغة التجريد، وهي لغة أشبه بالموسيقى من جهة إيقاعها وتجردها من المعاني المتاحة واقعيا فكانوا لذلك أكثر حرصا من الآخرين على أن تكون للشكل واللون حضورهما الخاص والمستقل، حضورا خاصا لأنهما هوية ثقافية مستقلة تؤسس داخل رموزها عالمها الاشتقاقي الفذ.

ولو نظرنا على سبيل المثال إلى المرقوم الليبي، لعثرنا في أسلوب بنائه على ما يثني على الطبيعة كونها المعجزة التي ينبعث الرمز منها ومن خلال الصلة بها، وبهذا الثناء تكون الطبيعة هي التي تهب الشكل كفاءته على اختراع سبل نجاته وبنائه، وكما نرى فإن النساجات قد وهبا الطبيعة

صورة صافية – الجبل، الشجر، السمك– داخل الرمز، فهو كان كريما دائما سواء في علاقته مع الطبيعة أم مع التاريخ.

لا يزال أسلوب النسج في القرى البربرية محافظا على مفرداته، مفردات سعت النساجات إلى تهذيبها، بأصابع الصانع الصائغ فهي أصابع لا تقبل الفوضى، بأسلوب اشتقاقي قريب من روح المعتقدات القديمة للآلهة المتعددة الحامية للعبد، يخدمه الشكل واللون في لحظات نسج تقنية استثنائية، فـ "التقنية والقدرات والعمليات المكتسبة الدّاخلة في أدائها الفنّي تتضمّن الدّور الخلاّق والاختراع للتصميم أو الإنشاء والبراعة الفنية الأساسية لكل وسيط والقدرة على استخدامها بالطرائق التي ترغبها أذواق النّاس"[1].

لتحافظ النساجة الليبية على حرفة أجدادها التي عبّرت من خلالها عن روحها وانتمائها للأمكنة والأزمنة، للماضي والحاضر، لتنخرط النساجة في توظيف التعبير الفني التشكيلي بدلالاته ومفاهيمه والرموز التي من خلالها تقرّب الصورة الواقعية وتصل بها إلى لذة بصرية وانتشاء جمالي فهي تجيد السيطرة على الفكرة واللون والصورة والتقنية بعقلانية متوازنة يظهر الجمال في حضور الألوان بين الشديدة الواضحة والأبعاد الضوئية التي تنعكس عليها، ما يخلق تناغما بينها يضفي عليها صفاء وحضورا فـ "...الشعوب التقليدية تهتم بالألوان الصارخة. ومن المعتاد أن يكون اللون الأحمر هو اللون المفضل في اغلب الأعمال إلى جانب اللون الأسود "[2].

ففي كل منسوجة تتجادل الأشكال والألوان مع حركة الخطوط بأسلوب حيوي ظاهر وفكري باطن كأنها تفكك نفسها وتفصح عن مشاعر مكتظة في عمق ذاتها، تشكلها بأسلوب حسب المسار والدلالة البصرية التي تعكس الوجود والانتماء في سياقات رمزية الخفاء والتجلي، فالأشكال التي تقع خلف الألوان الظاهرة تتراءى كنوافذ مضيئة تختزن رمزا فنيا أو عقائديا.

1– توماس مونرو، التطور في الفنون، ج3 ، الهيئة المصرية، القاهرة، 1972، ص63.

2– ابراهيم الحيدري. اثنولوجيا الفنون التقليدية. دار الحوار للنشر والتوزيع. البلد. 1984.ص 140

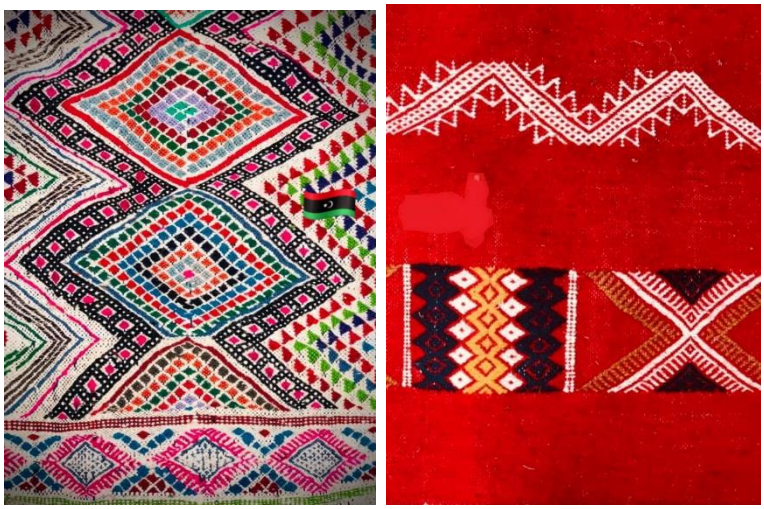

تجادل الأشكال والألوان مع حركة الخطوط في المنسوج الليبي التقليدي

تناشد النساجة الليبية الجمال في عملها الذي يثير التأمل لاختلاف الملامح ولحضور الخصوصية والتنوع الثقافي، أين تتقن بثها في ألوان تتراقص مع الأضواء فتوظف الدرجات اللونية الحارة والرماديات والألوان الباردة وتضفي رمزية التعامل معها بدمج الخط و"الرقمة "، أين تحاول النساجة البربرية تركيز بساطة جمالية تعمق الحضور الذهني وتمازج بين الخيال والفكرة بين الحلم والرغبة للتمكن من تسلق درجات الواقع دون الوقوع في خيبة المحاكاة والتكرار وتضيف عليه بصمتها الخاصة وإدراكها من خلال تجربتها.

كل هذه الخصوصيات وغيرها المؤثثة لفضاء المنسوجة التقليدية في ليبيا هي في الحقيقة طوق النجاة بنسبة لها أمام الرهانات المعاصرة للفنون التقليدية، فالهوية هي كلمة السر في استمرار وتموضع أي شيء أو أي منتج، فالمنتج النسجي الليبي يمثل عنواناً مهماً في الإنتاجية الحرفية بها، كما يمثل نوعاً من الهوية والتاريخ الفني الذي ساهمت في بنائه نساجات لم يدرسن علم الجمال ولا الفنون التشكيلية او التطبيقية ليؤسسن مع الزمن إلى وظيفة إنتاجية عندهن ولينتقلن بالحرفة من الهامش إلى المتن، بما ينعكس على الأولويات والضرورات المجتمعية دون الإخلال بالجانب الجمالي لهذا المنتج.

هذه المكانة لا تتوقف عند الركون إلى فهم وقراءة الخصوصيات التشكيلية فقط، بل تحتاج إلى توفير الشروط لإنضاجها من خلال التلقين والتكوين لتضمن نجاحها وفاعليتها، كما تحتاج إلى رأس المال والتدريب وتدعيم وظائف إدارة الصناعات التقليدية، وخبرات العاملين في المجالات الحرفية خاصة النسجية منها، والتركيز على الإبداع والابتكار كعنصرين أساسين للارتقاء بصورة

النسيج الليبي حتى يواكب نسق التطور الكبير والكثير من التغيرات الطارئة على مفهوم وصور الفنون التقليدية.

هذا إضافة إلى احتياجنا إلى قراءة التحولات التي جرت على المفهوم ووظيفة المنتج النسجي عموما، وقراءة تغير الذوق العام والتطورات التقنية التي ساهمت في تغيير صورته ووظيفته، فرهانات العصر عديدة منها تداعيات العولمة وقوانين السوق وآليات الإنتاج والجودة، التي تعول على قوى تتصل بالمعرفة والإبداع والهوية.

في العقود الأخيرة، سجل حقل النسيج ومن ورائه الفنون التقليدية حضوراً مهماً في الأسواق الحديثة، وبات من الواضح أن الرهانات في ظل المنافسة الشديدة على غزو السوق والفرادة في الإنتاج واستغلال كل ما هو موروث شعبي، لم تعد تقتصر على الطرق والوظائف والأساليب التقليدية للإنتاج، بل غدت تقوم على التعصير وإعادة صياغة المنتج الحرفي مع الحفاظ على الهوية والخصوصية، فهي محّرار كل صناعة تقليدية وثروة للشعوب، ونبع ثراء لا ينضب.

في عصر العولمة واتساع رقعة الفنون التقليدية، ازدادت أهمية الابتكار، بازدياد أهمية اقتصاد الحرفة، وبدا من الواضح أن اتساع هذه الرقعة، واتصالها بمختلف آليات الإنتاج، قد عزز أهمية الفنون التقليدية كمفردة مهمة لدعم الاستثمار، ليعمل التقدم التقني، وانفتاح الأسواق، وتغير أنماط التسويق وحاجات الناس، وطرق التوظيف والاستغلال، إلى ضرورة دفع الفنون التقليدية إلى سلّم أولويات الاهتمامات.

إن الحديث عن الفنون التقليدية، هو الحديث عن مستقبل الاستثمار في عصر أصبح يسير العالم فيه بسرعة الضوء، والفكرة الأساسية هي أن الانتاجات الحرفية أصبحت في ظل العولمة منتجات قابلة لأن تشكل رقماً مهماً في الدخل القومي من خلال تحويلها إلى صناعات لا تعتمد على الجهود الفردية فقط، بل أيضا تقوم على العمل المؤسساتي الذي يقع تحت بصر التخطيط للرهانات المستقبلية في ظل اقتصاديات العولمة القائم على الإبداع والابتكار وسوق الحرف والفنون التقليدية هي رهانات يمكن أن يعوَّل عليها كثيراً.

لتتجلى بعض عناصر الإشكالية الأساسية التي يطرحها نظام توظيف وممارسة الفنون التقليدية في:

• كيفية التوفيق الإيجابي بين الوفاء للأصالة والتطلع الدائم للمعاصرة وجعل الفنون التقليدية في تفاعل مع مقومات هويتها والانسجام والتكامل والتفتح على مقومات التطور الحرفي والفني.

• كيفية الوصول إلى فنون تقليدية مفعمة بالحياة تعمل على تجاوز نظام الروتيني السلبي في جانب منه ونظام العمل الفردي لتتحول من منطق التوريث فقط إلى منطق التكوين والتأطير الأكاديمي أيضا الذي ينمي الطاقة الذاتية والقدرة على الابتكار.

• العمل على تفتح الفنون التقليدية على محيطها بنسج علاقات جديدة بينها وبين فضائها البيئي والمجتمعي والثقافي والاقتصاد.

• تكوين الكفاءات وتطويرها وتنمية الابتكار والتصور.

• التمكن من العلوم والتقنيات والمهارات وتنميتها بواسطة البحث والابتكار.

• الرفع من قيمة التراث والعمل على إشعاع قيمه العريقة.

خاتمة

إن الحديث عن الحرف والفنون التقليدية حديثا يهم الكثير من المهتمين بالتراث، لتتعدد النظريات في أساليب التعامل مع الصناعات التراثية والحرفية، فمنهم من ينظر إليها من منظور تراثي ويكتفي بالمحافظة على أنماطها السائدة وبصورتها البدائيّة، وهناك من يرى بضرورة المراجعة الفنيّة والتقنيّة وإعادة تقديمها بشكل يساير التطوّر في بوتقة الصناعات الحديثة. وفي هذا المقال حاولت من خلال عرض أهم خصوصيات المنسوج الليبي جماليا وحرفيا والإشكاليّات والتحدّيات التي يعيشها اليوم ولعلّ أهمها هو أهمية توظيف التراث الفني أو الثقافي بشكل عام، ورهانات مواكبة المعاصرة على مستوى الإنتاج والهوية والترويج والتوظيف وضرورة التثمين والبحث والقراءة النّاضجة لموروث المادي واللامادي الفكري والفني، وأهمية أن يحظى التراث الثقافي النسجي الليبي في الفترة الأخيرة باهتمام متزايد لدى أهل ليبيا وفي المحافل الدّوليّة الثقافيّة والحرفية باعتباره يعبّر عن هويّة معيشيّة في ما هو يومي محسوس.

قائمة المراجع:

[1]– عفيف بهنسي، جماليات الإبداع العربي، مجلة فصول، المجلد السادس، العدد الرابع، 1986

2–النّاصر البقلوطي، مقولات في التراث الشعبي، منشورات تبر الزمان، تونس، 2005

3– د. رشاد عبد الله الشامي. إشكالية الهوية في اسرائيل . عالم المعرفة. الكويت. 1997.

4-. فيصل مفلح. هيكلة الرمز في الوجود. دار الينابيع. دمشق. 2008.

5- Picasso et la Céramoque، Musée national des beaux-arts du Québec، Gardiner Museum of ceramic Art، Musée Picasso Antibes، Éditions HAZAN، 2004

6- محمد محسن الزارعي. فصل الفضاء التواصلي فضاء هيمنة أم فضاء إبداع وترفيه. الإبداع الفني والفضاءات التواصلية. منشورات المعهد العالي للفنون والحرف بقابس. 2003.

7- أحمد فؤاد باشا، فلسفة العلم والتقنية، محاضرة، بتاريخ الأربعاء، 13-4-2004

8- توماس مونرو، التطور في الفنون، ج3، الهيئة المصرية، القاهرة، 1972،

9- ابراهيم الحيدري. اثنولوجيا الفنون التقليدية. دار الحوار للنشر والتوزيع. البلد. 1984